

تقييم الأثر: اختيار منهجية التقييم، والاعتبارات الأخلاقية، وإدارة التقييمات

يقدم هذا الموجز دليلاً عملياً لاختيار وتصميم وتنفيذ تقييمات الأثر. يسلط الضوء على أهمية فهم طبيعة التدخل وسياقه، وليس فقط اختيار المنهجية المناسبة. يناقش الفرق بين التصميمات التجريبية وشبه التجريبية، ويوضح كيف يمكن للأساليب المختلطة أن تعمق فهماً للنائج والسياقات المختلفة. كما يركز على الجوانب الأخلاقية كعنصر محوري في أي تقييم، ويعرض مبادئ أساسية مثل النزاهة والاحترام والمساءلة. في القسم الأخير، يتناول الموجز إدارة التقييمات من التخطيط إلى التنفيذ، مع التأكيد على إشراك أصحاب المصلحة، وضمان جودة البيانات، وتخصيص ميزانية وجدول زمني واقعيين لضمان الاستفادة القصوى من نتائج التقييم.

هذا الموجز هو جزء من سلسلة مكونة من خمسة موجزات إرشادية أعدتها مؤسسة الملكة رانيا، استناداً إلى مواد طورها البروفيسور هوارد وايت (مُمثلاً عن مركز البحوث والتقييم - REC) لدورة تدريبية بعنوان "تقييم الأثر: من التصميم إلى التوسع". وقد تم تمويل هذه الدورة من قبل مؤسسة الوقف التعليمي (EEF)، ومؤسسة BHP، ومؤسسة الملكة رانيا.

اختيار التصميم الصحيح لتقييم الأثر

اختيار منهجية التقييم لا يقتصر على قرار تقني بحت، بل يتطلب فهماً دقيقاً لطبيعة التدخل، ونوع البيانات المتوفرة، والظروف الواقعية المحيطة بالتنفيذ. صحيح أن التجارب العشوائية المحكمة (RCTs) تمنحنا أعلى درجات الثقة في تحديد الأثر، لكنها ليست دائماً الخيار الممكن، إما لأسباب لوجستية، أو ببساطة لأن التدخل بدأ فعلياً قبل التقييم. في مثل هذه الحالات، تُقدّم التصميمات شبه التجريبية، مثل مطابقة المشاركين المتشابهين (PSM) أو تصميم انقطاع العلاقة بين المتغيرات (RDD) بدائل عملية وفعّالة.

وفي جميع الأحوال، يُعدّ استخدام الأساليب المختلطة خياراً ذكياً، إذ يجمع بين التحليل الكمي والنوعي، مما يوفر فهماً أعمق لأثر التدخل وسياقه، ويُضفي على نتائج التقييم بعداً أكثر إنسانية وواقعية.

العوامل المؤثرة على اختيار التصميم:

- **مرحلة التدخل:** هل لا يزال البرنامج في مرحلة التخطيط، مما يتيح خيار التوزيع العشوائي؟ أم بدأ فعلياً، مما يحد من الخيارات المتاحة؟
- **الاعتبارات الأخلاقية:** هل يمكن تنفيذ التقييم بطريقة عادلة ومنصفة لجميع المشاركين؟
- **توفر البيانات:** هل توجد بيانات كافية قبل بدء التدخل لدعم تصميم التقييم؟
- **الجدوى العملية:** هل يمكن تنفيذ التصميم المقترح ضمن الإطار الزمني والميزانية المتاحة؟
- **القيمة لصانعي السياسات:** هل ستكون نتائج التقييم مفيدة وقابلة للتطبيق فعلياً في صنع القرار؟

على سبيل المثال، إذا وضعت الحكومة حدًا أدنى لدرجات الاختبار كشرط للحصول على منحة جامعية، يمكن استخدام تصميم انقطاع العلاقة بين المتغيرات (RDD) لمقارنة الطلاب الذين تجاوزوا هذا الحد بالكاد مع أولئك الذين لم يحققوه بفارق بسيط. هذا يُنتج ما يُعرف بـ "التجربة الطبيعية"، حيث يُفترض أن الطلاب على جانبي الحد متشابهون إلى حد كبير، مما يتيح استخلاص استنتاجات سببية قوية.

الأساليب المختلطة في تقييم الأثر

في حين تُخبرنا البيانات الكمية ما إذا كان التدخل قد أحدث فرقًا، فإنها غالبًا ما تعجز عن شرح كيف ولماذا حدث هذا الفرق — أو لماذا لم يحدث. وهنا تظهر قيمة تقييم الأثر باستخدام الأساليب المختلطة، الذي يجمع بين الدقة الإحصائية والفهم العميق للسياق.

المكونات الرئيسية لتقييم الأثر بالأساليب المختلطة:

- **البيانات الكمية:** مثل التجارب العشوائية المحكمة، والمسوح، والسجلات الإدارية.
- **البيانات النوعية:** مثل المقابلات، ومجموعات التركيز، والدراسات الإثنوغرافية.
- **التحقق المتقاطع:** مقارنة وتحليل النتائج من مصادر متعددة لزيادة الموثوقية.
- **التصميم المتسلسل أو المتزامن:** تنفيذ التحليلات النوعية والكمية بشكل متتابع أو في الوقت نفسه، بحسب التصميم.

مثال تطبيقي:

برنامج للتدريب المهني يستهدف تحسين فرص توظيف الشباب: قد يُظهر التقييم الكمي زيادة طفيفة في معدلات التوظيف، لكنه لا يُظهر الصورة الكاملة. من خلال المقابلات ومجموعات النقاش، قد نكتشف أن النساء يواجهن حواجز إضافية، مثل مسؤوليات رعاية الأطفال أو التمييز في سوق العمل، ما يحد من استفادتهن من البرنامج. هذه الجوانب النوعية لا تظهر في الأرقام، لكنها ضرورية لفهم الأثر الحقيقي وتصميم تدخلات أكثر شمولًا.

وباستخدام هذا الدمج، تساعد تقييمات الأساليب المختلطة صناع السياسات على تجاوز سؤال "هل نجح التدخل؟" إلى سؤال أعمق: "لماذا؟ ولمن؟ وتحت أي ظروف؟" — ما يجعل البرامج أكثر فاعلية وتأثيرًا في الواقع.

الاعتبارات الأخلاقية في تقييم الأثر

تُعد الأخلاقيات العمود الفقري لأي تقييم موثوق للأثر. فعندما يشارك الأفراد في الدراسات، فإنهم يمنحون المقيمين ثقتهم ويضعون بين أيديهم معلومات حساسة وشخصية. هذه الثقة مسؤولية لا يمكن الاستهانة بها، وتتطلب التزامًا صارمًا بالسلوك المهني المسؤول.

وفقًا للمبادئ التوجيهية لفريق الأمم المتحدة المعني بالتقييم، يقوم التقييم الأخلاقي على أربعة مبادئ رئيسية:

- **النزاهة:** التحلي بالصدق والشفافية في جميع مراحل التقييم، والالتزام بالمعايير الأخلاقية دون تلاعب أو تحريف.
- **المساءلة:** تنفيذ التقييم بدقة وصرامة، ومشاركة النتائج بأمانة، واستخدامها لدعم قرارات قائمة على الأدلة.

- الاحترام: حماية حقوق وكرامة المشاركين، والتعامل مع آرائهم وتنوعهم بثقة وتقدير.
- المنفعة: ضمان أن التقييم يعود بالنفع على الأفراد والمجتمعات، مع تقليل أي ضرر أو تأثير سلبي محتمل.

الشكل 1: مبادئ أخلاقيات التقييم الخاصة بفريق الأمم المتحدة المعني بالتقييم

مبادئ الأخلاقيات في التقييم

- ❖ النزاهة
- ❖ المساءلة
- ❖ الاحترام
- ❖ المنفعة

ويُترجم ذلك في الممارسات الأخلاقية المتبعة في دراسات تقييم الأثر:

- الموافقة المستنيرة: التأكد من فهم المشاركين لغرض الدراسة ومخاطرها.
- السرية: حماية البيانات الشخصية للمشاركين وردودهم.
- المعاملة العادلة للمجموعات الضابطة: استخدام البدائل الأخلاقية مثل التصاميم المرحلية.
- صدق وشفافية عند كتابة التقارير: تقديم النتائج دون تحيز أو إغفال.

من التحديات الأخلاقية الشائعة التي قد تواجه المقيمين، الكشف عن قضايا حساسة مثل الفساد في برامج التعليم أو التمييز في ممارسات التوظيف. وهنا يبرز سؤال محوري:

هل يجب الإبلاغ عن هذه المعلومات، حتى لو كان ذلك قد يُعرض مصادرنا للخطر؟

الإجابة الأخلاقية تتطلب توازناً دقيقاً بين الشفافية في عرض النتائج وحماية المشاركين من الأذى أو العواقب السلبية. ومن جهة أخرى، تثير طريقة التعامل مع المجموعات الضابطة، خصوصاً في التجارب العشوائية المحكمة (RCTs)، تساؤلات أخلاقية أيضاً.

هل من العدل حرمان هذه المجموعات من التدخلات التي قد تعود عليهم بالفائدة؟

أحد الحلول العملية هو استخدام التصميم المرحلي، حيث يُنفذ التدخل على مراحل، ما يتيح في النهاية لجميع المشاركين الاستفادة منه دون استثناء.

في المحصلة، يتطلب التقييم الأخلاقي اعتماد نهج "عدم الإضرار"، وهو نهج يضمن احترام السياقات المحلية، ويمنع استغلال الأفراد أو تجاهل أصواتهم، ويعزز في الوقت ذاته الثقة في نتائج التقييم واستخدامها لصنع قرارات أكثر عدلاً وفعالية.

في الشكل أدناه، تجد بعض الخطوات التي يمكنك اتخاذها بصفتك مُقيِّمًا فيما يتعلق بالاعتبارات الأخلاقية.

الشكل 2: خطوات الاعتبار الأخلاقي



إدارة تقييمات الأثر: من التخطيط إلى التنفيذ

تنفيذ تقييم أثر عالي الجودة لا يقتصر فقط على اختيار المنهجية المناسبة، بل يتطلب تخطيطًا دقيقًا، وإدارة فعالة، وإشراكًا حقيقيًا لأصحاب المصلحة في جميع مراحل التقييم.

الخطوات الأساسية لإدارة تقييم الأثر:

- تحديد أهداف واضحة للتقييم من البداية
- تشكيل فريق متنوع التخصصات يجمع بين الخبرات الفنية والمعرفة بالسياق المحلي
- إشراك أصحاب المصلحة مبكرًا والاستمرار بالتواصل معهم خلال جميع مراحل التقييم
- وضع جدول زمني وميزانية واقعية تتناسب مع نطاق التقييم
- ضمان جودة البيانات في جميع مراحل الجمع والتحليل
- توصيل النتائج بفعالية وبأسلوب يناسب مختلف الفئات المعنية

مشاركة أصحاب المصلحة - من صانعي السياسات إلى المانحين والمنفذين - هي عنصر أساسي لضمان أن تكون نتائج التقييم ذات صلة ويمكن الاستفادة منها. إذ كثيرًا ما تضع التوصيات الجيدة عندما لا تتماشى مخرجات التقييم مع أولويات متخذ القرار.

وأخيرًا، تتطلب تقييمات الأثر تخطيطًا ماليًا وزمنيًا دقيقًا. فالتقييمات الواسعة، خاصة تلك التي تتضمن جمع بيانات على ثلاث مراحل (الخط الأساسي، والمنتصف، والنهائي)، قد تستهلك موارد كبيرة. في هذه الحالات، يُمكن خفض التكاليف

من خلال الاستفادة من البيانات الإدارية المتاحة، أو استخدام أسلوب الدمج (Piggybacking) —أي إدماج أدوات التقييم ضمن دراسات أو مسوحات جارية— مع الحفاظ على جودة البيانات.

المزيد من القراءة

- White, H. (2009). Theory-based impact evaluation: Principles and practice (Working Paper 3). International Initiative for Impact Evaluation (3ie). Retrieved from https://www.3ieimpact.org/sites/default/files/2017-11/Working_Paper_3.pdf
- White, H. (2013). The use of mixed methods in randomized control trials. *New Directions for Evaluation*, 2013(138), 61–73. <https://doi.org/10.1002/ev.20058>
- White, H. (2024) Research and evaluation programme grant management. REC Management Note Number 2. <https://therec.co.uk/research-and-evaluation-programme-grant-management/>
- White, H. and Raitzer, D.A., 2017. Impact evaluation of development interventions: A practical guide. Asian Development Bank.